قضايا الأدب والأدباء

حول مقدمة للشعر العربي

بقلم مهدي العبيدي

كنت قد تصفحت هذا الكتاب الضخم : ديوان الشعر العربي ، واعدته الى موضعه من الرف الخاص به في احدى المكتبات الكبيرة ببغداد ، ولم أجد من نفسي رغبة ملحة في اقتنائه بقصد الاستفادة منه في الاطلاع على نماذج عديدة من الشعر العربي في قديمه العافي ، اذ هو فادح الثمن ، وقد تكون النماذج الشعرية التي يضمها بين دفتيه وبذل جامعها ومصنفها مجهودا مضنيا في هذا السبيل ، مما قرأناه في الكتب القديمة ـ كالاغاني لابي الفرج على سبيل المثال . لكن ظل في نفسي بعدها ثمة توق دافع وتلهف مشوق نحو الكتاب ، تحملني عليهما هاته المقدمة الضافية التي كتبها الشاعر أدونيس ـ علي احمد سعيد ـ وقد تعلمت مما قرأته في الكتب من قبل ، ان الشعراء المجيدين ممن يعانون تجربة الحس والوجدان ويغلب عليهم الاتسام بالرهافة ورقة الشعور والانخطاف بما يحيط بهم من صور الحياة وألوانها ، فيكون لها في أعماق نفوسهم أصداء بعيدة وردود فعل بينة ذات وقع شديد وانعكاس باق قد يطول أو يقصر ، تعلمت ان أولاء كثيرا ما يتوسلون الى ارسال الاحكام الدقيقة بخصوص الشعر الذي يبدعه غيرهم وتنسجه أفهام سواهم ، وقد يستكنهون حقيقة التجارب الشعورية ودوافعها الملحة ويحيطون ببواعثها وموحياتها ، ولفرط مراسهم بالمعاناة والمكابدة وألفتهم لاوقات الترسل العفوي والسليقة المحضة حيث يطاوعهم التعبير عما يستجيش في أطواء نفوسهم من الخواطر اللاعجة والعواطف المرتجة ويستوي لهم الامكان من ناصية اللفظ ويتأتى لهم بصورة تلقائية لا اثر فيها للتكلف السمج أو التصيد المزري ، ويجيء موائما لمتطلبهم منه حالا في موضعه من القصيدة الشعرية على أبين وجه وأتم صورة ، بحيث لو أغني عنه بغيره من الالفاظ لاستبان نبوه وتقلقله وأغري باستبعاده والتماس الاول ، ولشدة ضيقهم وكربهم وحتى قنوطهم في الاوقات الاخرى التي يلوح فيها وكأن أجدبت قرائحهم وعقمت سلائقهم وغاض نبع العواطف الصافية الملهمة بالشعر الخالد الحي في نفوسهم ، فلا النفس تهتز وتستفرقها تجربة الفن ولا التعبير الزاخر الدال على المعاناة الواقعية بمؤات لهم في أدنى حال من الانغمار والانذهال بالتجربة ، فهم على هذا أدرى بما يقاسيه الشاعر من النصب والعناء في تأديته وتعبيره واستجماعه خواطره ورعشاته والتماس ما يتكفل بمضمونها من الالفاظ الملائمة والتعبيرات الموافقة وأخيرا بالتجارب الشعورية الموحية الماتة الى الواقعية والصحة بأكثر من سبب أو وشيجة ، والاخرى المتكلفة المدعاة التي يفضح اداؤها المهلهل حتى وان انطبع بصلادة الالفاظ أو اصطنع البلاغة المحوجة لتصفح المعجم ، ما يسمها من الاعتمال والانتحال والزيف في تحصيل حاصل .

فمقدمة أدونيس ظلت وحدها تغريني بالتماس الكتاب ومحاولة تملي صفحاته على أقل تقدير وبشكل عابر ، ويحببها الي من جهة ثانية هذا الاعلان الفضفاض عن الكتاب الذي يشغل صفحة الغلاف لعدد أو اثنين من مجلة الاداب التي لا مدعاة أو من قبيل الضروري نعتها بالبيروتية ، على مألوف عادتنا في التعريف بالمجلات والالماح للجهات التي تصدر عنها ، فهي مجلة الادب والفن والفكر الاولى في الوطن العربي ولا تناظرها في الاضطلاع برسالة الفكر المنطلق والادب الحي والحياة المتطورة أية مجلة أخرى ، حتى وان غلبت على بعض أعدادها مياسم الغثاثة والسطحية والضحالة في بعض المواسم التي يطغى فيها الركود على الحياة الادبية ، الا انها تهب بعدها نسمة تشيع في الاجواء المتكدرة من حولنا شذى عابقا وعبيرا فواحا وتبعث على النشاط الجديد فتثار اكثر من مسألة فكرية هامة وتتضافر الجهود للتوفر عليها تدارسا واستقصاء وعودا بها على البواعث المتباينة والمصادر المختلفة . والاعلان هذا اذ يحتل صفحة غلاف بكاملها وتمامها من مجلة الاداب العزيزة يثير في نفسي مزيدا من الاستغراب والاندهاش والتشكك ! فهذه مجلة ملتزمة مسؤولة أمام قرائها في حالة حيدتها عما التزمته من خطة قويمة ومنهج سديد ، فقد طالعتنا ذات يوم باكثر من بحث واحد في تبيان حقيقة منطلقات جماعة شعر وجلتهم لنا على انهم مرتبطون بجهات مشبوهة فهم آخر من يدين بالاخلاص نحو ادبنا العربي وتراثنا العريق وتربتنا الزاكية . وهدف مجلتهم ـ شعر ـ المحتجبة ! لا يتعدى محاولة فرض أشكال جديدة من التعبير الغريب باسم التجديد والابداع قد لا توائم مشاربنا وتجافي قيمنا بقصد حملنا على اطراح سمات الاصالة الحقيقية وخصائص الفنية المحببة اللتين امتازت بهما مأثوراتنا القديمة ومعطياتنا الوليدة مما !

فاني يجوز التوفيق بين موقف « الاداب » من هاته الجماعة ـ جماعة القوميين السوريين ـ وفي طليعتهم أدونيس مقدم ديوان الشعر العربي وبين احتضانها لاعلان دال على انه ـ نقطة تحول في النظر الى الشعر العربي وفهمه ـ ميلا بالافهام صوبه واستلفاتا للاذهان نحوه واستحثاثا للعقول على استساغة مقدمته واستيعاب مضمونها وتشرب فحواها ، وكل ذلك لا يعدو أن يكون في تحصيل حاصل ضربا من الدعاية المغرية التي قد تجوز على بعض من يبهرهم البريق الخاطف ويضلهم السراب الخادع ، بينما قد لا تستدرج من راضوا ذواتهم على حسن التدبر وطول الامعان ودوام النظر في الاشياء قبل التثبت منها والركون اليها والافضاء منها الى قرار قاطع وجزم حاسم. والدعاية من جهة اخرى قد يعول بها على معطيات ومحصلات علم النفس الحديث ونتائجه الناجمة عن تجريباته واختباراته ومشاهدات المختصين بهذا اللون من العلم الباحث في مبادىء السلوك ومنازع الاخلاق . فهناك ما اسماه العلماء العصريون بالايحاء الذي يتم بواسطته حمل الافراد والجماعات على اطراح صنف معين من المشاعر أو الاحاسيس وحتى الاعتقادات والمسلمات والميل لاستقبال اخرى بديلها والانفتاح لها والنزوع لاعتناقها ، بأحر مما كان الامر مع الاولى من الحماس المفرط والشغف الحاد والجدية التامة . فالدعاية بواسطة الاعلان على هذا تعول على الايحاء . والناس بطبيعة الحال تغريهم الالفاظ الطنانة ويخدعهم بريق الالفاظ الجوفاء . فاذا شفع الاعلان الدال على اهمية كتاب ما بازجاء نبذة مقتبسة من تقييم اديب معروف للكتاب ورأيه في مؤلفه ، كان ذلك أجدى في التعريف وأبلغ في التغرير ، وقد ينطلي الامر أحيانا حتى على أوفرهم زكانة وترصنا وأخذ النفس بوقار أهل الادب والفكر ، فيقبلوا بدورهم على الكتاب العتيد فما يزيدهم غناء أو يوفي بهم على تحصيل جديد ، الا انهم يؤوبوا من رحلتهم في صحائفه بالمكرور المعاد والنتاج الضحل والمرعى الوبيل ، بله والمسخ البارع لقيم الاشياء المنحرف بها عن طبائعها الاصيلة ومقتلعها من منابتها الراسخة .

فهذا زكي نجيب محمود من كتاب وفلاسفة الجمهورية العربية الحديثين يسطر ضمن تقييمه للكتاب : « لم أقرأ شيئا بلغ هذه الذروة في النفاذ ... وأقوى مواقع النقد في هذه المقدمة هو ما كان متجردا تجردا يدعمه بالرأي والشواهد » . وهذا توفيق يوسف عواد مؤلف قصتي « الصبي الاعرج » و « قميص الصوف » في البعيد ، و « السائح والترجمان » المتراوحة بين الشعر والرواية اليوم ، يستفل اسمه

ويستفاد من شهرته بصريح العبارة في التدليل على أهميـــة الكتاب اذ يسجل له :

« قرأت المقدمة التي وضعها الاستاذ علي أحمد سعيد (أدونيس) لديوان الشعر العربي ، وهي تشكل في نظري قمة من قمم النقد لا في اللغة العربية بل في سائر اللغات » .

فأما جبرا ابراهيم جبرا فيزجي قوله في مقال ضاف أو رسـالة شخصية : « لاول مرة أقرأ نقدا لفترة مهمة من فترات الشعر العـربي فيدهشني ما فيه من دقة ونفاذ وشمول رؤية . أول دراسة تخلص الى جوهر الشعر الجاهلي كفن يعكس دواخل نفسية أو عبقرية خاصـــة بزمانها ومكانها . ولكنها ذات مغزى للازمان اللاحقة وامتدادات انسانية دائمة الخطورة » .

لا جرم فقد غالبت هذا التـــوق الملح لتدارس مقدمة أدونيس لمختاره من الشعر العربي القديم ، وقهرت هذه الرغبة النازعة نحـــوه وتوسلت لقمعها بشتى الوسائل والتعلات ، فقد تستجد من مطـــالب العيش في بعض المواسم ما تستدعي الوفاء بها وتتطلب النزول عليهـا ويغدو التفريط بها واستهوانها من قبيل أخذ النفس على المركب العسير والمحمل الشاق والجادة الوخيمة . وكذا انطمست الرغبة الملحاة التي قد يكون نجم عنها من الضرر النفسي ما يفوق عادة الضرر المتأتي فـي حالة الاشباع والاستجابة لمتطلبها ويربو عليه بأضعاف . وتناسيت الامر بعدها على غرار ما أروض ذاتي على تناسي المساءات التي قد استهدف بها احيانا ، الى أن اهتيج في نفسي من جديد على غرار اهتياج الفتن الساكنة بأيسر باعث من استثارة مقصودة . والباعث هو اعلان مجلة « الاداب » العزيزة عن دالة ادونيس وسابقته في رسم نقطة تحول فـي النظر الى الشعر العربي وفهمه .

لكن حصل بعدها وبمحض الصدفة اني بينا كنت أراجـع اعدادا قديمة من مجلات شتى ، وقع نظري على مقالة لادونيس في العدد ٨٣ السنة الرابعة نوفمبر ٦٣ ، لمجلة المجلة المصرية ، تحمل عنوان ــ مقدمة للشعر العربي ــ والغريب اني ألفيت في مواضع منها بعض التعليقات الهامشية والخطوط التي خددت بها بعض السطور الهامة ابان قراءتي لها في وقت صدور العدد ، وما أدري بعد كيف غاب هذا عن وجداني وفات ذاكرتي بهذا اليسر وبهذه البساطة ، فالمقدمة ليست على هـذا بالجديدة . فمجلة المجلة المصرية تكفلت منذ أمد قد يكون بعيدا بنشرها واقتطاعها من الكتاب بالاتفاق مع كاتبها طبعا ووفرت على بعض مـن لا يطيقون الانفاق الطائل مؤونة التبديد والتبذير .

يهمنا من هذه المقدمة القسم الاخير . ففيه تستقطب جمـــاع ملاحظات الكاتب الشاعر ونظرانه وانطباعاته عن الشعر العربي عـــامة والجاهلي منه خاصة . ويستبين بوضوح وجلاء منهجه في التخيـــر والانتقاء ، للنماذج المختارة ، بينا قد تكون الاقسام الاولى منها فـي عمومها مجرد استقراء لأحوال العرب الاجتماعية والقبلية وعقـــائدهم وتقاليدهم وحتى عاداتهم ومواضعاتهم ، في ظروف الحرب والسلم . وقد يعتمد فيها على اللمحات الانشائية والتعبيرات المنمقة المستهدفة لذاتها بقصد جلاء المعنى على تمام الدقة والخصوصية والتركيز فمـــا يبين الا متلفعا بالغموض منطبعا على الابهام متجلببا بحلية من الحذلقة الفجة والتعالم الصفيق ، مما قد يبعد بتلكم الاقسام الاولية ذاتهـــا عن مزية البحث الدقيق المترابط المتسلسل بجماع فحاويه ومضموناته، وقد تكون بمقطعات النثر الفنـي المحكم بألفاظـــه المنتقاة وعبارتـــه المصنوعة وفق قياس دقيق وتحديد ثابت أشبه وأمت . ومن هذا الرصد الانشائي لحياة الجاهليين نزجي هاته العبارات والفقرات :

■ « يريد الشاعر الجاهلي ، كشاهد ، ان يعطي لما يشهد لـه صورة تطابقه ، في كيانه ما يتوثب ويندفع الى الخارج ليصير مثـله ــ خيمة ــ وامتدادا صحراويا وليلا . فشهـــوة التحقق في أعماقه شهوة الخارج ، شهوة ان يصير مادة ، أن يتشيأ هو نفسه أيضا . ان فيه توقا الى أن يخلق زمنا اخر ومكانا اخر » .

□ « الاشياء في نظر الشاعر الجـــاهلي تعبر كالغيم . تتراءى وسرعان ما تختفي . تصبح كل لحظة تمر ، ذكرى شيء يضيع أو يغيب. فلا يكاد الشاعر ينظر حتى تصير نظرته جزءا من الماضي . من هنـــا تشبثه بالحاضر ، بالحاضر يملأ المسافة بينه وبين العالم . واذ يمـلاه لا يثار من الطبيعة المنفصلة وحسب ، وانما يشعـر بالسيادة عليهـــا ايضا . والصحراء فضاء متشابه أو يكاد » .

فهذه الاقوال اراهن انه قد يتعذر على القـــارىء ان يحيط بفجواها ويمسك بأطرافها ويستخلص منها معنى محددا يظل عالقا فـي الذهن لامد طويل ، فهو كمن يمسك بقبض الريح او يلتمس في المـــاء جذوة نار ، أو يجري لاهثا نحو مصدر الماء فما يبعـد عن مرامي بصره الا السراب الفريب .

لماذا ديوان الشعر العربي ؟!

بهذا التساؤل الحار يستهل ادونيس القسم الاخير من مقدمتـه الضافية ! فيتكفل هو نفسه بالاجابة على هذا الوجه :

ندرك أهمية هذا الديوان اذا تذكرنا ان الطاقة الابداعية الاولـى عنـد العربي هي الطاقة الشعرية وعرفنا كثرة الشعر الذي ورثناه عن أسلافنا ومقدار تنوعه وكثرة المصادر تبددها واختلاف الروايات فيها . وعرفنـا الى ذلك خلو مكتبتنا الشعرية من مجموعات جديدة تـــم اختيارها بوجهات نظر جديدة . الا ان هذا الـــديوان ليس ضرورة مرجعية يملأ فراغا في مصادرنا الشعرية فحسب ، وانما يملأ فراغـــا فنيا . انه متحف للشعر العربي مختصر وجـــامع . فالشعر العربي شأنه في ذلك شأن الشعر في العالم ، يحتاج الى اعادات نظر دائمة في ضوء الحاضر . ويمكن اعتبار هذا الديوان فاتحة هذه الاعادات ، فما سبقه باستثناء حماستي ابي تمام كان جمعا تقليديا كيفيا واصطلاحيـا يكرس المقاييس السائدة والذوق الشائع . وهذه فاتحة ضرورية ينبغي أن تتلوها محاولات ثانية ، بروح هذه الغاية ، لكن بوجهات نظر اخرى، وتبدو أهمية هذه الاهمية ، ضروريتها ، خصوصا في مرحلتنا الانتقالية الشعرية حيث نشهد نوعا من التحـــول يتردد بين قيم القديم وقيم الحديث ، بين جمال الطبيعة وجمال الخلق » .

وحسب القارىء ان يفطن بنفسه لهذا الادعاء الفظيع واللقـــانة التهافتة والتباهي السخيف . حتى لكأنه يقرأ تقييما للمقدمة لا فـي المقدمة نفسها . فأدونيس يفيض في تبيان أهمية المحاولـة ، وكاد أن يغرق ذاته في لجة الازدهاء المعيب اكثر ، لولا ان مال بنفسه نحـــو الادلال بالتواضع . فقد اشاد بمجهود ابي تمام في حماستيه قديمـــا مومئا لقيمتهما الفنية . فالمضطلع بهما شاعر كبير لا مراء في انطباعـه على المزاج الشاعري والذوق الفني ، ولعل عنايته الفائقة بدقة التعبير واحكامه آلت به لان يوفي بملكته على الصنعة والبديع والتوغل فـي التماس المعاني العويصة وانتقاء القوالب الموائمة لها بأوزانها وقوافيها ومفرداتها . وكذا أتعب نفسه وقراءه من بعد في حل طلاسمه وتفسير مبهماته وجلاء مستغلقاته ، مما نكب به عن طريق الفنية البديعة المائـة الى العفوية الخالصة والسليقة المطبوعة بأوثق الاسباب .

لكن من يدري ، لعل التواضع المشفوع بالشهادة لابي تمام بقيمة المحاولة وجسامة المجهود وما يلحق بذلك من الاقرار له بصفاء الذوق

مكتبـــة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطـــوعات العـربية ، وكـذلك محلة

الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب

وسلامة الطبع وتغليب مقاييس الفن والجمالية في التخير والجمع على ما عداه من المقاييس التي لا تمت الى الشعر والنقد بصلة قد يتكفل باشباع حاجة مدعية لا الى الشهرة العريضة والصيت الذائع هذه المرة بل الى الاستواء وأعلام الشعر العربي القدامى ممن ظفروا بأسباب الخلود والبقاء على صعيد ، وكان الاحرى بأدونيس ان يدع الاخرين يشهدون له بأهمية بدايته الضرورية مؤمنين على الجهد الكبير المبذول لتحقيق هذه الغاية بالتعويل على الذائقة الفنية والحاسة النقدية والشاعرية المطبوعة ، لا أن يدل بها بازدهاء متنفج وتباه مفضوح ، هما أبعد ما يكونان عن الاعتداد المقبول الذي لا تطاله المؤاخذة والانتقاد جراءه .

وبعدها ينهد الكاتب الى تسجيل جملة احكام تحوجنا مناقشتها وتقليبها على مختلف وجوهها والوقوف منها بحذر وتحوط قبل التسليم بصحة أي منها واتسامه بالنضج والصفاء وانطلاقه من الموضوعية والنظر الفاحص : « ثم ان هذا المتحف الشعري يساعد في اعادة الاعتبار الى الشعر كفاعلية ابداع أولي في الحياة العربية . ذلك ان دوره الان بدأ يتضاءل عن مستوى رسالته الاصلية في حياة العرب . هذه ظاهرة أزمة ، علينا أن نعترف بها . ومهما تكن اسبابها سياسية أو دينية او راجعة الى طبيعة مرحلتنا التاريخية ، فان هذا لا يجوز أن يلهينا عن التأمل فيها ودراستها . وهذا المتحف التراثي يدعم يقيننا بالفرق الكبير الذي قد يصل الى درجة الفرق النوعي بين النظم والشعر . لم يبق من تراثنا الشعري غير الشعر ، اما النظم وهو كثير فقد مات . هذا ينبهنا اعتمادا على تراثنا نفسه الى ان الاهمية الاولى في الشعر ، ليست في مراعاة الاصول النظمية ، وانما هي في الاستسلام لجموح الموهبة وهواها . وترك التجربة تأخذ الشكل الذي يلائمها ، بعفوية ودون قيد مسبق من أي نوع . ان في تراثنا الشعري، شعرا ليس الا نثرا منظوما ، يعبر تعبيرا مباشرا ، ويسمي الاشياء بأسمائها ببرودة وسطحية ، بينما نجد في تراثنا نصوصا كثيرة لم تخضع لاي وزن ، ومع ذلك تزخر بروح الشعر وصوره ، وهذا كله يزيد ايماننا بأن الشعر طاقة متحركة لا تحد بأي شكل نهائي فبالاحرى ألا تحد بأي وزن مفروض » .

ورغم اقتفائه فيها منهج الصدق الفني في التعبير وتجسيد الرعشات والخلجات الانسانية التي تستغرق الشاعر ويقع هو الاخر تحت تأثيرها وينغمر في عبابها الزاخر ، فهي تزدحم وتنشحن بالمغالطات والمتناقضات وقد يغلب عليها في بعض المواضع تلاعب بالالفاظ ، فلا يحسن الانخداع ببريقها الواهج والانخطاف بتاديتها الشائقة ، حتى اصطناعها الاخلاص وادعائها الموضوعية . فالكاتب يستمر فيها متابعا تبجحه المعسول بكونه قد يساعد من طريق محاولته : « في اعادة الاعتبار الى الشعر كفاعلية ابداع أولي في الحياة العربية » . وهذه دعاوة حق . فالشعر عمل خلقي كما قيل ، وليس الهية عابث يعني برصف الالفاظ وتنميقها . وبدون الانسان الاخر ، لا يتم الشعر رسالته في التبشير بقيم الخير والحق والجمال ، وذا لا يعني بحال الزام الشاعر بأن يحمل ذاته حملا على البوح والتعبير والانسياق بتأثير ما لم يكن له صدى في نفسه وزجع في ذاته وانعكاس في وجدانه . وهذه امور تخطاها النقد الادبي من أمد طويل وتعاورتها الاقلام الجادة بالتمحيص الدقيق والتدارس الجاد . حتى لقد بات أمر معاودتها والنقاش حولها والتلاهي بصددها من قبيل التورط فيما لا غناء منه ولا جدوى . فلا شعر بدون الانسان ! اذ هو نجاوى فؤاده وترانيم قلبه وتسبيحاته في محاريب الحق والخير والجمال . فهو على هذا صدى ظروفه وسمة عصره ، بله روح العصر ، لكن أدونيس سرعان ما يبادر الى الانتقاض على القولة التي يزجيها قبل قليل فيسطر : « ان الشعر الباقي ليس الشعر الذي يعلم أو يكون صدى للظروف والاوضاع الخارجية » . فاما الاولى فنحن نقرها ونسلم بصحتها ، فالتعليمية وما يختص بها من السردية والتقريرية وصوغ المعاني غير المأتة الى النضج الفني بصلة ، وقد كان الاحرى ان يعبر عنها نثرا ، كل هذا لا ينسجم في رأينا ومقولات التعبير الفني الصادق الذي نشترطه للروائع الشعرية الخالدة المحتضنة للتجارب الشعورية ذات الاحساس الفني والاصالة الحقة . لكن ذلك قد يعني ان الشعر يحسن ان يجيء محملا بالصدى المنعكس عن الظروف والاوضاع الخارجية ، فمقولة الكاتب الاخيرة لا تستوي على صعيد وما يلتمسه للشعر من احتفاله وتمثيله لفاعلية الابداع الاولي في الحياة العربية . ان عبقرية الشعر لا تتوافر أسبابها بدون الايحاء بالقيم الخيرة البارة التي تستقطب جمالات الحياة وتعفي على ما يشوه وجهها من صور القتامة والجهامة والقبح والانمساخ ، فالتلاعب بالالفاظ المنمقة لا يمكن ان يعين كاتبا ما في محاولة فرض قيم زائفة على واقع حياتنا الراهنة . كما ان الاستناد الى المقولات الصحيحة والاحكام المنطقية والمسلمات المقبولة التي يجمع على نضجها وصفائها وسدادها ، أولاء الحريصون على التراث العربي الخالد الدائبون على صونه والمحافظة عليه من التضييع والتلاشي أو الانسلاخ في ركام الثقافات المختلفة لا يشفع لبعض الدعاة بالاقرار لهم بسلامة النية واستقامة الغرض والاغضاء عن مقاصدهم الخسيسة .

صحيح ان « في تراثنا الشعري شعرا ليس الا نثرا منظوما يعبر تعبيرا مباشرا ، ويسمي الاشياء بأسمائها ببرودة وسطحية ، بينا نجد في تراثنا نصوصا كثيرة لم تخضع لاي وزن ومع ذلك تزخر بروح الشعر وصوره » .

ونحن نلمح بهذا الخصوص الى كتاب ـ الاشارات الالهية لابي حيان التوحيدي ، فهو يحتفل بالتعبير الفني والرهافة الشعرية الى حد كبير رغم اجرائه على طريقة النثر ، لكن هذا لا يغرينا بالتورط في اطراح الاوزان وتحطيم القوافي والغناء عن الايقاع الجميل والتموسق العذب في الشعر ، بكلا رويه العمودي والحر ! ان النتيجة الختامية التي يستقر بها أدونيس ويستقطرها من اجتلائه تنحصر في تسويغ : « ألا تحد طاقة الشعر بأي وزن مفروض » . يعني أن تحتضن قصيدة النثر المستجمعة لمخرقات القول المنغلق والرطانة المزهوة باستقطاب التجارب الكونية والانخطاف بظاهرات الوجود وغير ذلك من التعلات والهلوسات التي ما تفيد ذويها في امتلاك « ناصية الفن » ، أو مجرد ادعائه و « التظاهر به » على أي حال كما ألمح الى ذلك اكثر من ناقد .

وينهد ادونيس عقب هذه الدعاوة المتخرصة لتحطيم الاوزان ونبذها ظهريا ، اذ ينفذ اليها ببراعة متناهية وذكاء لماح وبيان آسر ، بالتوقل على مسلمات ومقولات سدنة التراث العريق وحراسه وحماته من أن تلوي به العاصفات الهوج وتطمسه التيارات الغريبة وتمسخه النزعات الضارة المحسوبة على الفكر ، نقول ينهد بعدها الى الاستمرار ومتابعة الانسياق في الادعاء الباطل والازدهاء الرخيص ، غير المشرف، فيسطر ثانية وفي موضع اخر : الديوان ، بسبب من هذا ، نوع من اعادة الاعتبار الى الشعر العربي ! وقد يعفي على هذا عنايته بجلاء حقيقة النهضة الادبية التي أوفى عليها الشعر العربي منذ أخريات القرن الفائت ، فينسب بها الى الاحياء وتقليد النماذج الشعرية القديمة من ناحية الشكل واحتذاء التعبير اللغوي المتين الذي انطبعت به روائع الشعر القديم ، وذا لا يدل على النهضة الحقيقية ويحيط بمدلولها ، فهو غير التوليد والتجديد والابتداع ، وأشهد اني لم أقرأ من قبل كلمة قاطعة بهذا الخصوص تفيد في حملنا على تصحيح كثير من المصطلحات والاقوال التي باتت منذ أمد طويل من قبيل المسلمات الثابتة ، كهذه الكلمة الموضوعية الموسومة بالنضج والصفاء وحرارة الصدق ، التي يسطرها أدونيس في حال من انفلاته عن طوق الادعاء العريض والتعالم القبح وفي حال من انفتاحه في غفلة صوب الاحساس العروبي واستقبال مآتيه .

وكذا يستمر في دفاعه عن الشعر الفني ، شعر الحالات الوجدانية وضرورة التماسه في روائع الشعر العربي القديمة من بين آلاف الابيات المجسدة لمعاني الحكمة ومضامين المدح وفحاوي الهجاء ، ويحصر تبعة عزوف الاجيال الطالعة عن قراءة الشعر القديم في المناهج العقيمة التي

ترسمها الباحثون ابان فترة الاحياء ـ لا النهضة ـ فقد تخيروا في الكتب المقررة للتدريس في المعاهد والجامعات نماذج متميزة بالمفردات والتراكيب والاوزان وكل ما يرتبط بقواعد البلاغة واصول التعبير اللغوي وشرائط العروض ، دون العناية الجادة بتحديد مدى احتفالها بتجربة الوجدان الفني والاحساس الصادق . ويختتم انتقاده للطرائق التعليمية الفاسدة الضارة التي شاعت في مدارسنا زمنا طويلا ، بالقول : « وساعد النقد الشعري في تمكين هذا العزوف وزيادته . فقد اكتفى هذا النقد على الاغلب بأن يكرر مقاييس النقد القديم ، وينقله بشكل او اخر ، فيدور حول شكل الشعر وصناعته وأوزانه ، دون اصالة في النظر تذهب الى ما هو أبعد وأعمق . ان النهضة الحقيقية تبدأ في الربع الثاني من القرن العشرين حيث توقف التقليد الاعمى ، وبدأ المفكرون والشعراء والكتاب يتفهمون عصرهم ، وينظرون الى تراثهم من خلال التغير الشامل الذي طرأ على الحساسية الشعرية في القرن العشرين ويعيدون النظر اساسيا في كل شيء مخضعين للنقد المقاييس والقيم الماضية جميعا » .

والشق الاول من هذه الخاتمة قد لا يصمد لايسر جد من النقاش والتمحيص ، فهو لا يخلو من ميسم الاستخفاف بمآثور العرب النقدي واسهتوانه والتقليل من أهميته ، ومثل هذه الاقوال لا تعدو ان تكون تكرارا لما الاح به اسماعيل مظهر قبل اكثر من ربع قرن ودلل عليه من اقتصار مأثور العرب النقدي على « المفاضلة ونقد المعاني والالفاظ من طريق الاتساق واللغة » (١) . وهذا التحديد هو عين ما يومىء له علي أحمد سعيد اليوم من افتقاد النقد القديم ، الى (اصالة في النظر تذهب الى ما هو أبعد وأعمق) ، كأن النقاد القدامى لم يشترطوا للاعمال الفنية والادبية ضرورة اتسامها بتجربة الاحساس الفني وانطباعها على الصدق وصدورها عنه وانسياقها بوحيه . لكن ما أدري كيف فات الاثنين ان منهج عبد القاهر الجرجاني اللغوي ، وان كان مزيجا من مراعاة قواعد النحو واصول علم المعاني ، فقد يتعداهما بالتعويل على الذوق الفني ، « اذ يرى في اللغة مجموعة من العلاقات ويرى كذلك ان الالفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، فالاساس هو النحو على ان يشمل النحو علم المعاني وان يعدو الصحة اللغوية الى الجودة الفنية وفي النهاية تحكيم الذوق فيما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة » (٢) . فهما في هذا الاعتبار من انكار دالة العرب في ابتداع نظريات النقد الادبي وجحد صنيعهم ، لا ينتظمان في صف المرحوم الدكتور محمد مندور الذي يستدل على اصالة مذهب الجرجاني في النقد ورسوخ قواعده بكونه (المنهج المعتبر اليوم في العالم الغربي، وان الانسانية جددت معرفتها بتراثها الروحي منه ، اذ اخذت به في أوائل القرن التاسع عشر ، والمنهج اللغوي « الفيلولوجي » هو اكثر المناهج خصبا لا في الادب فحسب بل وفي كافة العلوم التاريخية » .

وهذا الجاحظ صاحب القولة المعروفة ـ الشعر صياغة وضرب من التصوير ـ فهو يشترط على هذا استغراق الشاعر في الاحساس الفني ووقوعه تحت تأثير المعاناة الوجدانية . ولعل رسالة بشر بن المعتمر المعتزلي ـ او الحافي ـ في مظان الكلام والفصاحة ، هي أدل على تجاوز النقاد العرب في استقراءاتهم النقدية لحدود الالفاظ والمعاني واحتضانهم لمزية الصدق في التعبير وتمثيل التجربة الواقعية ، والا فبدونهما يحسن بالشاعر ان يعفي ذاته من مؤونة التكلف والانتحال ، حتى لا يجيء نتاجه غثا باردا وخاويا فجا . ولنزج عبارات من تلك الرسالة لنستدل بها بأسلوب العصر ذاك على عناية النقاد العرب القدامى بضرورة مواتاة الطبع وأخذ النفس بالطواعية وتجنيبها مشقة الكد والمغالبة . يقول بشر الحافي :

« .. ان كانت المنزلة الاولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك في أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل الى قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اغتصاب مكانها والنزول في غير اوطانها ، فانك ان لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد . فان انت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك بصيرا بما عليك ولك عابك من انت أقل منه عيبا ، ورأى من هو دونك انه فوقك . فان ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك وسواد ليلك وعاوده من نشاطك وفراغ بالك فربما لا تعدم الاجابة والمواتاة ان كان هناك طبيعة او جريت في الصنعة على عرف . فان تمنع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول عن هذه الصناعة » .

فأما الشق الثاني من الخاتمة العتيدة فيحمل في طياته تشويها لبعض الحقائق التاريخية رغم قصر المدة الفائتة ، على انصرام زمنها ، فالكاتب يلج في المكابرة والعناد اذ يحدد لتاريخ النهضة الحقيقية في المقاييس الشعرية والنقدية فيحصرها في الربع الثاني من القرن العشرين ، وفي ذلك ما فيه من انكار لدالة العقاد والمازني وشكري الذين اسهموا جميعا في الاضطلاع بالنظريات النقدية الحديثة وعارضوا مذهب شوقي في ترسم البلاغة القديمة وتطلبوا شعر الحالة الفنية والتجربة الاصيلة ، حتى وان توسل له بأيسر الالفاظ وأدناها من الفهم شريطة احتفالها بالرهافة والدفق والشفافية ، وكل هذا المجهود الكبير ـ ينضاف اليه كتاب الغربال لميخائيل نعيمة ـ تم قبل الفترة التي يحدد .

وبعد كل هذا ! كيف نوفق بين واقع هذه المحاولة في تقييم الشعر العربي القديم واختيار نماذج وشواهد منه دالة على (استسلام الشاعر لجموح الموهبة وهواها وتركه التجربة تأخذ الشكل الذي يلائمها) ، فقد لا تفتقر الى عنصر الذوق الصافي في الجمع والاختيار وفي الوقوع أيضا تحت تأثير الاخلاص لهذا التراث العروبي الشامخ في أحايين الغفلة ويقظة الضمير وصحوته من رقاده ، وبين حقيقة جماعة القوميين السوريين اصحاب مجلة « شعر » وأدونيس في الرعيل الاول منهم ، وقصيدته « البعث والرماد » برموزها الكالحة ودلالتها المريبة تكفي وحدها لفضح معاداتهم لاماني العرب وتطلعاتهم واحلامهم ، اذ يستوحي فيها حضارة فينيقيا ، ويمني نفسه بتحقق المشروعات الجهنمية الرامية لسلخ سورية واقعا وتاريخا عن واقع العالم العربي وتاريخه . عسى أن لا تكون هاته المحاولة احدى الخطط التي يبتدعها الاعداء ، أعداء الوطن العربي ، لتمرير أهدافهم وترويج شعاراتهم . فقد يتظاهرون احيانا بتنبي نيات المخلصين واعتناق نظرياتهم ومذاهبهم وعقائدهم ، من أجل التوسل لفرض ادنى حد من القيم الزائفة والنزعات الضارة .

بغداد — **مهدي العبيدي**

تعليق الاداب : من يقرأ « ديوان الشعر العربي بجزئيه ، يتبين بما لا يقبل الشك أن المؤلف يعتز شديد الاعتزاز بالتراث الشعري العربي ، مهما كانت المقاييس التي يضعها لتقييم هذا التراث قابلة للجدل . من هنا كان اعتقادنا بأن المؤلف قد تحول عن آرائه السابقة ، وتبنى موقفا جديدا من التراث ومن الفكر العربي . ونعتقد اننا لسنا نملك ان نمنعه من ذلك ، بل نحن نرحب بهذا التحول، الناشىء عن درس وتعمق وايمان ، كل الترحيب

ومع ذلك ، فنحن ننشر تعليق المعلق هنا لنفسح المجال واسعا امام الدارسين والنقاد المتخصصين للادلاء بآرائهم في هذا الموضوع الهام .

ـ التحرير ـ

(١) تاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر .

(٢) النقد المنهجي عند العرب للمرحوم الدكتور محمد مندور .